لقي القرآن الكريم، منذ نزوله، اهتماما بالغا تعبّر عنه كثرة الدراسات التي دارت حوله وتعددها، فإضافة إلى التفاسير والشروحات، تناول العلماء والمختصون فيه وجوه بيانه وأسرار تراكيبه وألفاظه وأفكاره ومعانيه وغيرها مما يعد من صميم الإعجاز القرآني، ومما كان له أثره الواضح على البلاغة والنقد العربيين.

يقول مصطفى صادق الرافعي: "ورد عليهم أسلوب القرآن، رأوا فيه ألفاظهم بأعينها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب، وألوان المنطق. ليس في ذلك إعنات ولا معاناة. غير انهم، ورد علبهم من طرق نظمه ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها وكلماته، ونسق هذه الجمل في جملته، ما أذهلهم عن أنفسهم من هيئة رائعة، وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود، حتى أحسوا بضعف الفطرة القوية، وتخلف الملكة المستحكمة. ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه وأن هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم. وأنه لا سبيل إلى صر عن نفس احد من العرب".

فقد شكل القرآن "ظاهرة لغوية فريدة في تاريخ اللغات. إذ لم يحدث للغة العربية تطور تدريجي، بل ما يشبه الانفجار الثوري المباغت، كما كانت الظاهرة القرآنية مباغتة. وبهذا تكون اللغة العربية قد مرت طفرة من المرحلة اللهجية الجاهلية إلى لغة منظمة فنيا، لكي تنقل فكرة الثقافة الجديدة، والحضارة الوليدة".

وقد عبر القدامى أنفسهم عن ذاك التطور الحاصل في اللغة العربية والاختلاف الذي حملها عليه القرآن الكريم

وقد كان للنحويين واللغويين نصيب كبير من تلك الدراسات، فأبرز الآراء ظهرت في ثنايا كتبهم من مثل كتاب (معاني القرآن) للفراء، وغيره ممن طبعت كتبهم بالعنوان ذاته أمثال الكسائي والأخفش والزجاج وأبو علي الفارسي وأبو جعفر النحاس، ومن الكتب ذات الصلة: كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى، وكتاب الجاحظ (نظم القرآن)، وكتابي (غريب القرآن) و(تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة، و(كتابي دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني.

ثم انفصلت الدراسات القرآنية عن النحوية، وعكف علماء الإعجاز يشرحون وجوه الإعجاز البلاغي، فكتب الرماني (ت 386هـ) (النكت في إعجاز القرآن)، والخطابي (ت 388هـ) (بيان إعجاز القرآن)، والباقلاني (ت372هـ) (إعجاز القرآن). يقول محمد خلف في مقدمة تحقيقه لكتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني): "يمثل القرنان الرابع والخامس مرحلة خصبة في تاريخ الدراسات القرآنية والنقدية. ففيهما نضجت نظريات العلماء في إعجاز القرآن، وتحددت اتجاهاتهم ومنازعهم في الكشف عن أسراره."

وقد شكلت تلك الدراسات القرآنية رافدا مهما من روافد البلاغة والبلاغيين، إذ راحت تمدهم بالمواقف والرؤى، ويتجلى ذلك في كتاب ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) (سر

الفصاحة)، وكتاب أبي هلال العسكري (الصناعتين)، ليبلغ البحث النقدي والدرس الإعجازي أوجه مع الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة).

وهذا ما جعل البلاغة وكتب الإعجاز أكثر ارتباطا، فلا يمكن فهم تلك دون العودة إلى هذه، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن البحث في القرآن كان الدافع للبحث في الشعر واللغة، أو بمعنى أدق كان باعثا للبحث في لغة الشعر على وجه التحديد، ولأن القرآن له فضل في توجيه الحضارة العربية الإسلامية، وتكوين العقل العلمي واللغوي، وأيضا في تسيير الجهد النقدي والبحث البلاغي، وتربية ملكة النقد الأدبي وتهذيب الذوق عند العرب وتطوره، لاسيما وأن القاطع المشترك بينهما واحد وهو اللغة. فقد صار الشاهد القرآني هو الحكم الفصل بين فنون القول وأنماط الأساليب، وفي البحوث النقدية والدراسات الأدبية، ذلك أن القرآن معجز بألفاظه ومعانيه وأسلوبه، متميز بما جاء به من سبك وتركيب وتماسك وبيان ونظم، وحسن تأليف، والتئام أجزاء وفصاحة وبلاغة . يقول الطاهر حليس موضحا دور القرآن وفضله على الحركة العربية اللغوية والنقدية والبلاغية: "كان لنزول القرآن أثره في نهضة البلاغة وعلوم البيان عند العرب لما جاء به من جديد في أساليب التعبير والبيان، فدفعهم إلى الانشغال به ودراسته دراسة ميدانية كل حسب اهتماماته. فالمفسرون يتتبعون آياته، والفقهاء يستنبطون منه أحكام وأصول الشريعة، واللغويون يبحثون في الألفاظ العربية والمعربة، الغريبة وغير الغريبة، والنحويون يتتبعون أوجه

الإعراب لآياته، والبلاغيون يستقصون بيانه وبديعه، والنقاد يتخذون من الشاهد القرآني النموذج المحتذى في الصياغة من حيث تلاؤم اللفظ مع المعنى"

ومن قضايا النقد في كتب الإعجاز التي عكست وجهات نظر مغايرة لتلك التي تميز بها النقد عموما: البديع، السجع، البيان، النظم، اللفظ والمعنى.

نماذج نصية:

*قال أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (319/ 388هـ): "واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني،..." (الخطابي: بيان إعجاز القرآن، تح محمد خلف والدكتور محمد زغلول سلام، ص: 27.)

وقال: " ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكالنعت والصفة..."

*قال أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: " فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس. وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ومنافر متكلف. وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ... والبلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان."

وقد حصر وجوه الإعجاز فيما يلي:

ترك المعارضة مع توفر الدواعي/ شدة الحاجة/ التحدي للكافة/ الصرفة/ البلاغة/ الأخبار الصادقة عن المستقبل/ نقض العادة وقياسه بكل معجزة/ وفي شرط البلاغة ذكر : التلاؤم وحسن التقسيم والكلام وسهولة اللفظ وتمكنه من السمع وتقبل المعنى له في النفس لما يرد من حسن الصورة وطريق الدلالة.

*قال ابن خلدون في أهمية دراسة القرآن والإعجاز ومدى ارتباطه بالبيان: "واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن، لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال، مع الكلام فيما يختص بالألفاظ، في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن

إدراكه، وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه."

*قال المراكشي: "الجهة المعجزة في القرآن تعرف بالتفكير في علم البيان، وهو ما يحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى وعن تعقيده ويعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ... لأن جهة إعجازه ليست مفردات ألفاظ وإلا لكانت قبل نزوله معجزة ولا مجرد تأليفها وإلا كان كل تأليف معجزا ولا إعرابها وإلا كان كل كلام معرب معجزا ولا مجرد أسلوبه وإلا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزا ... ولكان هذيان مسيلمة معجزا..."

*قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي: "إنه ليس من متكلم كلاما كثيرا إلا وجد في كلامه اختلاف كثير، إما في الرصف واللفظ، وإما في جودة المعنى، وغما في التناقض وإما في الكذب، فأنزل الله عز وجل القرآن وأمرهم بتدبره، لأنهم لا يجدون فيه اختلافا."